جامعـــــــــــــة بسكـــــــــــرة

كليـــــــــة الآداب واللغـــــــات

قســم الآداب واللغة العربية

المحاضرة الثانية: الأصول الفلسفية واللسانية للنقد التفكيكي

في مقياس التفكيكيات لطلبة السنة الثانية ماستر

شعبة: النقد الحديث والمعاصر

إعداد الأستاذ الدكتور: بشير تاوريريت

السنة الجامعية: 2020-2021

1- الأصول الفلسفية واللسانية للنقد التفكيكي:

1- التنقيب عن الأصول الفلسفية للتفكيك:

قامت التفكيكية على مجموعة من الإرهاصات الفلسفية واللسانية، حيث اشتغل دريدا على الميتافيزيقا الغربية، والتي كان التفكيك ثورة عليها في تمجيدها للعقل والمنطق بهدف الوصول إلى جوهر الحقيقة المصفاة، وهو الشيء الذي فتح المجال أمام إمكانية الإبداع أو الانطلاق والتحرر :"إلاّ أن ما تقره الفلسفة الحديثة هو أن القضاء على الميتافيزيقا يتطلب وضع حد لوعي الإنسان باعتبار أن هذا الوعي يجعل من نفسه مركز الكون (...) فالميتافيزيقا تختزل الذات في الوعي، في الأنا ضمير الحضور"[(1)].

لقد جاءت التفكيكية لتعارض منطق الثبات من خلال معارضتها لوجود مركز ثابت يمثل مدلولات عليا، أو يمثل أرضية صلبة تبنى فوقها المعرفة التي تنتجها متغيرات العالم الخارجي، وهو ما يعرف بفلسفة الحضور، وكان هدف دريدا هو تبديد هذه الفلسفة والقول بفلسفة الآخر المغاير، أو فلسفة الغياب. لقد تأثر منظرو التفكيك بالفلسفة الظواهرية لهوسرل في القراءة وإنتاج المعنى، لأن: "الفلسفة الظواهرية في رؤيتها النقدية لاحظت أن القراءة تفاعل بين موضوع النص والوعي الفردي"[(2)].

والواقع أن "هوسرل" قد تطرق إلى نقد الميتافيزيقا التي ثارت عليها استراتيجية التفكيك، نظرا لتمركز التفكيك والوعي الإنساني حول هذه المركزية، حيث كانت العلامة عند هوسرل تحيل إلى دلالتين، دلالة التغيير ودلالة الإشارة، وهذا يعني أنها كانت وسيلة لإيصال رسالة ما، وفي الوقت نفسه تشير إلى أشياء ودلالات أخرى يبلغها القارئ من خلال ثقافته الذكية لهذه الرسالة. والعلامة إذا ما أصبحت إشارة فإنها ترتوي من بحيرة تعدد المعنى وانفتاح الدلالات على ما لا نهاية من الإيحاءات والتأويلات. بيد أن هذا الفصل والتمييز بين دلالتين للعلامة اللغوية عند هوسرل اعتبره دريدا :"عملا تعسفيا ساخرا لما حققه من نتائج ودلالات أيديولوجية لاحقة- فهذا الفصل- يقوم كما يرى دريدا على ضرب من التمييز

---

(1) عبد العزيز عرفة: (جاك دريدا) التفكيك والاختلاف المرجأ، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، الكويت، شباط، 1988، ص71-72.

(2) ينظر: نسيمة الغيث: البؤرة ودوائر الإتصال، دراسة في المفاهيم النقدية وتطبيقاتها، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000. ص14.

الأولي بين الافتراضات السيكولوجية المتمخضة عن محاكاة مناهج العلوم الطبيعية، وبين ما يسعى هوسرل إلى تأسيسه في صورة وقائع لغوية دقيقة"[3]، وأكثر من هذا فإن دريدا، وفي إطار تفكيره في اللامفكر فيه ضمن الفلسفة والمسكوت عنه ضمن الميتافيزيقا، قد وضح نوعية العلاقة القائمة دوما بين الحضور أو الوعي والصوت، وهي علاقة لم يتفطن لها حتى هوسرل نفسه حيث :" لا يتأسس امتياز الحضور كوعي إلا بواسطة سمو الصوت، إنها بديهية لم تحظ أبدا باهتمام الفينومينولوجيا"[4].

وإن كان لدريدا أفضلية السبق إلى هذه البديهية التي تقيم علاقة كانت خفية بين الحضور والصوت، فإن ذلك لم يمنعه من التطفل على الكثير من المفاهيم والأفكار التي عجت بها الفلسفة الظواهرية، بل إن دريدا ظل منتقدا – في أطروحاته عن التفكيك– للفلسفة الغربية بعامة في تركيزها على سلطة الحضور.

هذا وقد تأثر دعاة التفكيك بأفكار بعض الفلاسفة الوجوديين والمثاليين من أمثال هيدجر ونيتشه في مساعيهما الحثيثة عن فكرة إمكانية قيام أسس جديدة للفكر الإنساني، الحديث والمعاصر، هذه الأسس تقوم على نقد ورفض الأسس التي ترتكز عليها الحضارة الغربية الحديثة، معتمدة أيضا على مبدأ الشك وعدم الوثوق في الكثير من المفاهيم والمبادئ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنها ترفض التسليم بوجود أي معتقد كان أو المسميات الفكرية التي تسيطر على إبداعات مفكري عصور أخرى، واعتبروا ما بعد الحداثة لعبة لغوية[5]. وهو جوهر ما دعت إليه التفكيكية من خلال مقولاتها النظرية.

إن التداخل بين فلسفة دريدا وهيدجر يصل إلى حد التطابق في الكثير من المقولات، وإن كانت نظرة كل واحد منهما للغة والأدب فلسفية الجذور، فإن دريدا قد أخذ مصطلح "التدمير" من فلسفة هيدجر." وقد وصلت درجة التداخل بين المجالين ومباشرية التاثير إلى استخدام "دريدا" في الطبعة الفرنسية الأولى لكتابه: De La Grammatologie، لكلمة "التدمير" المحورية في فلسفة هيدجر بدلا من كلمة "التفكيك" التي تحول إليها دريدا فيما

---

[3] محمد على الكردي: الصوت والتفكيك عند جاك دريدا، مجلة علامات في النقد، جدة، مج 10، ج 40، جوان 2001، ص108، 109.

[4] ينظر: سارة كوفمان روجي لا بورت: مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر، ص15.

[5] ينظر: نصر حامد أبو زيد: البحث عن ما بعد الحداثة، مجلة العربي، ع506، يناير2001، ص17.

بعد[6]. ومن الدال جدا أن نشير في هذا السياق إلى أن مارتن هيدجر قد تحدث عن المعرفة واللغة، وثنائية الغياب والحضور، ولا نهائية المعاني والدلالات، والثورة على القراءات المألوفة العادية، ونقد التمركز العقلي وفلسفة الحضور، والتناص. وهي كلها مقولات اعتمدها دريدا في تاسيسه لمشروع القراءة التفكيكية للخطاب اللغوي فيما بعد. ومثلما فصل هيدجر بين العلامة وما تدل عليه، فصل دريدا هو الآخر بين الدال والمدلول وهو ما يبيح للمدلول التعدد والانفتاح إلى أبعد نقطة ممكنة مما يسمح بانفتاح المعنى وتعدده.

ويتفق دريدا مع هيدجر في القول بثنائية الحضور والغياب التي تعني أن الوجود لا يظهر حضوره إلا من خلال غيابه؛ بمعنى أن اللغة وفي حالة معرفتها بهذا الوجود تصطدم بجدار التقاليد الذي رسخ عبر الزمن، حتى أنه غيب هذا الوجود، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى تدمير هذه التقاليد من أجل استحضارالوجود المختفي، "ولا يتحقق الوجود إلا بالغياب"[7].

وكانت استراتيجية التناص هي محطة أخرى التقى فيها الفكر الدريدي التفكيكي بالفكر الهيدجري. فالنص عند هيدغر ما هو إلا سجين يعتمد في ظهوره على لغات وشفرات ونصوص سابقة، وهو نقطة تلتقي فيها نصوص أخرى سابقة في وجودها على وجوده. "إن مسألة الكينونة تعيد هيدغر إلى شعر بارميندیس، وهيراكليتاس، وأناكزيماندر. إن النص التفكيكي المعاصر يعود إلى نصوص أخرى سابقة ويبدأ منها، النص الهيدجري يحتوي على رماد ثقافي"[8]، والتناص هو مبدأ من المبادئ التي قامت عليها القراءة التفكيكية.

هذه النقاط المشتركة بين دريدا وهيدجر هي التي جعلت جيرار كرانيل يشير إلى أن فكر دريدا يمكن إرجاعه إلى الأنطلوجيا الهيدجيرية؛ لأن الوجود عند هيدجر ليس إطلاق أحد ألفاظ الاختلاف الأنطولوجي، حيث يلزم التفكير في الوجود، ولأول مرة بدون الموجود[9].

---

(6) عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، ص301.

(7) ينظر: المرجع نفسه، ص304.

(8) المرجع نفسه، ص305.

(9) ينظر: سارة كوفمان ، روجي لابورت: مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر، ص31.

هذا وقد اقتفى جاك دريدا خطوات الفيلسوف الألماني نيتشه يبدو ذلك واضحا في المنحى العام الذي التزم به نيتشه في كتاباته الفلسفية القائمة على الشك في جميع الأفكار الباحثة عن الحقيقة التي تفتح المجال واسعا أمام احتمالات تحرير الفكر من الحدود الضيقة للمفاهيم القديمة:"ومن خلال النمط النيتشوي قدمت التفكيكية معالجات متطرفة الشكوك والصرامة فيما يخص الوعي الذاتي"(10).وتبدو أصداء هذا التطرف ماثلة في أطروحات التفكيكين من خلال طرحهم لقضية موت المؤلف.

والواقع أن فكرة موت المؤلف ترتدّ في مصدرها الغربي إلى جذور فلسفية وخلفيات أيديولوجية تمتد إلى بنية الحضارة الأوروبية نفسها فقد أعلن نيتشه مقولة موت الإله، وبالمنطق نفسه أعلن دعاة التفكيك موت المؤلف. ونشير هنا إلى أن فكرة موت الإله قد لاقت تهليلا وتكبيرا في الأوساط الغربية، لأنها كانت تعبيرا عن اللحظة التاريخية التي تمر بها أوروبا في ذلك الحين، فهذه المقولة :" تعني زحزحت الغيبيات والميتافيزيقيات بعيدا لتفسح الطريق أمام ظهور الإنسان فالحقيقة هي ما يستطيعه الإنسان وما يمكن أن تكون في متناوله وما عدا ذلك فهو ميت، أو ينبغي أن يعد ميتا، وهذا المفهوم يعني صياغة جديدة للمذهب الإنساني، الذي تأسست عليه الحضارة الأوروبية منذ نشأتها في عصر النهضة..."(11). فمقولة موت الإله تعني في التصور النيتشوي إعطاء الأولوية للإرادة الإنسانية لكي تمارس طقوسها بتفكير سامي، وحرية مطلقة بعيدا عن ميتافيزيقا الحضور. وما ذلك سوى دعوة صريحة لإطلاق العنان للذات كي تمارس طقوسها في البحث عن ما هو خفي وغامض، وهي دعوة دعى إليها دعاة التفكيك، وقد انتقلت – مقولة موت الإله- إلى الأدب ونقده تحت مسميات متشابهة، فأعلن الأدباء موت الشخصية في مجال الأدب، وأعلن النقاد موت المؤلف في مجال النقد، إلى غير ذلك.

ومثلما تأثر دعاة التفكيك بأفكار نيتشه الفلسفية فإنهم تأثروا أيضا بقراءة نيتشه لأفكار هيجل عن المعرفة التاريخية :" إن معنى التاريخ، وتاريخ المعنى مرتبطان مع بعضهم البعض (في بحث هيدجر) عن توثيق الحقيقة الذاتية التي تملك جذورا قوية في الفكر

---

(10) المرجع نفسه، ص82.

(11) عبد الحميد إبراهيم: نقاد الحداثة وموت القارئ، مطبوعات نادي القسيم الأدبي، مكتبة الملك فهد الوطنية، دمشق، ط1، 1996، ص7.

الغربي. إن إيمان هيجل بوحدة وجود المنهجية التاريخانية هي النقطة التي حددها دريدا باعتبارها مصدرا للأصول والحضور الذاتي. وقد تعامل هيجل مع التاريخ والوعي باعتبارهما متقاربين باتجاه مرحلة الاستبصار القوي والفهم التام، ودريدا هو الآخر مثل نيتشه من قبل نجده حرص على تفكيك هذه المعرفة المثالية والمفاهيم المنهجية الخاصة بها. ومن أجل ذلك واجه تحديا قويا للتفسير التاريخي"[12].

وهنا نلحظ كيف أن دريدا هو الآخر قد عمل على تفكيك المعرفة والمفاهيم المنهجية عن معنى التاريخ وتاريخ المعنى تفكيكا مثاليا، وهو دأب سار على منواله نيتشه من قبل برغم التباين الحاصل في معالجة التاريخ بين دريدا ونيتشه، فإن الأثر النيتشوي يبقى عالقا بأطروحات دريدا في هذا المجال. هذا وقد وقف نيتشه ضد الحدود والأفكار التي حاول دريدا توصيفها وقد استبق دريدا في نمط واستراتيجية الكتابة إلى الدرجة التي أصبح الاثنان يبدوان مرتبطين بنوع غريب من التبادل والتماثل، حيث هاجم الاثنان فكرة العداء الفلسفي القديم للكتابة؛ لأن أفلاطون أقر بعدم الثقة بالكتابة هذا ناهيك عن إهمال الفلسفة الأفلاطونية لاستراتيجية النصية والحضور العميق للميتافيزيقا التي كشفتها التفكيكية فيما بعد.

وقد ثار نيتشه من قبل عن الفلسفة الغربية، كونها فلسفة قائمة على مبدأ الشك. وقد قدم نسقا من الكتابة الفلسفية، يعد الشك أساسها فالغاية مشحونة بجميع الأفكار التي تبحث عن الحقيقة والتي تفتح المجال واسعا أمام إمكانيات إطلاق العنان للفكر كي يتخلص من تلك القيود القديمة التي كانت تضيق عليه الخناق وتكبته، وهي الأفكار نفسها التي تبناها دريدا أو قال بها في دعوته على التفكيك كنمط جديد في قراءة الخطاب الأدبي وكشف جمالياته؛ معنى هذا أن تصور نيتشه للكتابة هو تصور مماثل لتصور ومنحى دريدا[13].

هذا ناهيك عن إشارة نيتشه إلى مفهوم التناص، المفهوم الذي اعتمدته التفكيكية في إرساء قواعدها النظرية، ذلك أن نيتشه يرى بأن الفلسفات جميعا، إنما تقوم الواحدة منها على الأخرى فهي ترتكز على التناص المنتقل بين اللغات الرمزية[14]،بمعنى أن كل فلسفة تأخذ من الأخرى من خلال الأعمال الأدبية، والمعرفية واللغوية، هذه اللغة تتحول إلى لغة رمزية

---

[12] كريستوفر نورس: التفكيكية، النظرية والتطبيق، ص84.

[13] ينظر: المرجع نفسه، ص63.

[14] كريستوفر نورس: التفكيكية، النظرية والتطبيق، ص65.

تحيل إلى دلالات ومعان واحدة، موضوعة سلفا، ومعروفة لدى الجميع.هذه بعض المحطات الفلسفية النيتشوية التي تواشجت مع الأفكار الدريدية التفكيكية، بل ومثلت بعض جذورها، وإن كان الفيلسوف نيتشه قد اختلف مع دريدا في فكرة تعدد المعاني، ولا نهائية المدلولات، والمعاني الغائبة.

ويرى نيتشه أن اللغة الرمزية خاضعة في دلالاتها ومعانيها لنظام الحقيقة، وهذا النظام كما هو معلوم ذو سياق قائم على نظرية النسبية، ومن ثم يكون المعنى الحاصل هو الآخر نسبيّا وغير مطلق، كونه يمثل النقطة التي يسعى إليها القارئ، وهي الحقيقة التي تظل أمرا نسبيا، وهذه الفكرة كانت قد مثلت نقطة الافتراق والانفصال بين الفكر الدريدي والنيتشوي. وفي رأي منظري التفكيكية أن الفلسفة منذ أفلاطون إلى هيغل هي فلسفة حضور، ومعنى ذلك أن الفكر لا يعترف إلا بما هو موجود في الوعي، وهذا يعني أن الإنسان هو مركز الكون[15]. وهذا ما نادت به الفلسفة الوجودية في قولها بالحرية المطلقة[16]، حيث وجد التفكيكيون في أطروحات الوجوديين الصدر الحنون الذي يحوي مقولاتهم بل ويدعمها، فقول دريدا برفض الميتافيزيقا الغربية بشتى أشكالها هو تجسيد لموقف الوجوديين الذين لا يقبلون ما يملى عليهم.

وقد ثار الوجوديون ضد أي بناء نسقي في كثير من المجالات: اللاهوتية والسياسية والأخلاقية والأدبية، وهم يناضلون ضد النظريات المقبولة عرفا وضد القنوات التقليدية[17]. وهذا ما نجده عند دريدا وأمثاله من منظري التفكيكية في محاولة قلب الأسس القديمة التي يقوم عليها النقد الأدبي ونقض كل المركزية التي يحال إليها. إن التفكيكية في تصور دريدا هي إعادة نظر في التفكير التقليدي، فحين يعي الإنسان أخطاءه يقوم بنقضها ومن ثم يعيد تشكيلها على نسف وحرق المكتبات ورفض أي سلطة مرجعية[18]. ويجب الإشارة في هذا السياق إلى أن الفلسفة الوجودية قد قامت على رفض هذا العالم بكل ثوابته فهي "حركة تغيير تمس جوهر الكون في علاقته بالإنسان، فهو يبدل الإنسان من متغير بالفعل إلى

---

[15] عبد العزيز عرفة: (جاك دريدا) التفكيك والاختلاف المرجأ، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص71.

[16] ينظر: حبيب الشاروني: فلسفة جون بول سارتر، منشأة دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت، ص169.

[17] ينظر: عدنان حسين قاسم، الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، الدار العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص100.

[18] المرجع نفسه، ص98.

صانع لكل شيء فيها"[19]. هذه الشطحات الوجودية هي الشطحات نفسها التي قامت عليها استراتيجية التفكيك.

وهنا نلتمس التأثر الواضح بالفلسفة الوجودية في رفضها لما هو ثابت ومركزي، ويعلل ذلك ثورتهم على المركزية الغربية كمركز تحال إليه كل المفاهيم والأصوات، يضاف إلى ذلك مناداتهم بالتفرد والتميز، فكل شخص يبني واقعه حسب رؤيته الخاصة. إن إيمان دريدا العميق بعبثية هذا العالم وأنه مؤسس على الفوضى وحالات من انعدام التوازن أين يجد الإنسان نفسه محاصرا بهالة من الأحلام والأوهام التي تبعده كلية عن الحقيقة، من هنا يبدأ الشك في كل القيم، فكيف لوعي الإنسان لهذه الحقيقة المرة أن يواصل وهو يشك في كل ما حوله، وينتهي تفكير دريدا في هذا السياق إلى نوع من اللامعنى وعدم النظام في الحياة وعبثية الأشياء.

لقد أدرك دريدا وأمثاله هذه العبثية واستوعبوها جيدا، فاتخذوا منها موقفا مضادا وراحوا يبحثون عن العلاج، متمثلا في نسف تلك القيم السائدة وإقامة البديل[20]. إن عملية الانقلاب هذه تتجه نحو رفض قيم فاسدة يرى الإنسان أنه لا بد من تهديمها ووضع بديل لها، وفي ذلك سخرية من النظم القديمة السائدة وممن يوالونها، وهذا ما اصطلح عليه دريدا بالمركزية والاحتواء والتدجين، حيث تكون الخطابات الأدبية بمثابة صوت يرددها، ويملي على كتابه من طرف الطبقات البرجوازية، وفي هذا السياق يقول إمام الوجوديين جون بول سارتر "إن مصير الأدب مرتبط بمصير الطبقة العاملة"[21].

نلحظ أيضا تأثر تفكيكية بارت بفلسفة سارتر في القول بالعدمية والعبثية[22]، فليس للقراءة عنده مفهوم ثابت، كما أن مسيرت الخطاب عند بارت تشبه حالة الإنسان الذي يلقي به في هذا الوجود ثم يبدأ في تكوين ماهيته، فالنص أيضا يلقى به في هذا العالم وقد عزل عن مؤلفه ليبدأ كل واحد من القراء في تقرير ماهية ذلك النص السابق لوجوده. ولهروب المعني عند التفكيكيين مقابل في فلسفة سارتر وهيدجر. "إن المحاولات التي يقوم بها

---

(19) حبيب الشاروني: فلسفة جون بول سارتر، ص244.

(20) محمد زكي العشماوي: دراسات في النقد الأدبي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1986، ص48-49.

(21) ينظر: المرجع نفسه، ص50.

(22) حبيب الشاروني: فلسفة جون بول سارتر، ص159.

الإنسان للوصول إلى الحقيقة وسط الأشياء تذهب كلها أدراج الرياح، لان الإنسان كلما اقترب من الأشياء ابتعدت عنه، وأفلتت هي من قبضته"[23]، فالحقيقه عند الوجودين تأتي مقابلا للمعنى عند التفكيكيين وهروب المعنى والحقيقة شيء واحد؛ لأن قراء الأدب ينشدون المعنى وقراء الفلسفة ينشدون الحقيقة الهاربة.

لقد رفض أبو الوجودية جون بول سارتر جميع القيم المسبقة ولم يبق إلا على قيمة واحدة هي قيمة الحرية . وهو جوهر ما انطلق منه دريدا لتأسيس مشروعه النقدي، حيث نقض كل ما أتى به النقد قبله وأبقى على قيمة واحدة هي الحرية، التي ارتبطت عند دريدا بسلطة القارئ من خلال ولوجه إلى عالم النص وهتك أسراره العصية الدفينة، من دون أن يقف في وجهه سلطان المؤلف وبنات أفكاره. هكذا نلاحظ أن أثر الفلسفة الوجودية في أطروحات التفكيكيين، يتمثل في حرية القارئ ودور الذات في إنتاج المعنى وتعدده. يضاف إلى ذلك مسالة القول بالقراءة التفاعلية أو الحوارية، وهي كلها مسائل عجت بها الأطر النظرية للتفكيك.

هذا وقد تاثر جاك دريدا في إرسائه لاستراتيجية التفكيك بمصطلحات ومفاهيم التحليل النفسي للعالم الشهير سيجموند فرويد، فمصطلحات من قبيل: الفض، الكبت، الحلم، الهلوسة، هي مصطلحات تتحدر من أصول الفلسفة الفريدوية. فقد تساءل سيجموند فرويد عن :"الرغبات التي استطاعت التمركز داخل الكتابة، لكي تصبح البيانات والدلائل الفلسفية أو العلمية حينما يتعلق الأمر بالكتابة، موسومة بإرهاق عاطفي وأخلاقي"[24].

إن هذه المصطلحات والمفاهيم الفرويدية للكتابة، تعامل معها جاك دريدا بشيء من الحيطة والحذر. بيد أن التحليل النفسي لا يمكن أن يحظى باهتمام دريدا إلا بإعادة وسمه وتحريكه وعلى عكس ما يبتغي البعض فإن التحليل النفسي لا يحتفظ بأي امتياز أو أية سلطة خاصة اللهم إلا بسلطة وهمية، من أجل فرض شرعيته. إن الخطاب المعلن لدريدا يلح في الوقت نفسه على طابع التحليل النفسي الذي يمكن تجنبه . وعلى غياب امتيازه في حدود معينه. وبرغم هذا التداخل بين أفكار دريدا وفرويد فإنه ثمة فرق كبير في مفهومهما للأثر،

---

[23] ينظر: عدنان حسين قاسم: الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، ص95.

[24] ينظر: سارة كوفمان، روجي لابورت: مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر، ص115.

فالأثر عند دريدا ليس حضورا ولكنه ظل حضورا يتصدع ويتحرك ويطرد، وليس له مكان على وجه التحديد.

هذا المفهوم يختلف جدا عن المفهوم الفرويدي للأثر في ربطه بالذاكرة الوراثية، إنه منزوع من الخطاطة التقليدية التي تجعله يشتق من حضور أصلي يجعل منه سمة أمبريقية: "الأثر لا يدل فقط على اختفاء الأصل، إنه يعني هنا (...) أن الأصل لم يختف حتى إنه لم يتكون أبدا، فالأثر يصبح هكذا أصل الأصل"(25).

وما نستشفه مما تقدم هو أن الفلسفة الظواهرية لهوسرل وكذا أصوات أخرى من أصداء الفلسفة المثالية والمادية أثرت أيما تأثير في التأسيس لاستراتيجية التفكيك، وقد غدت أفكار هوسرل عن الذات في وعيها للعالم. وأفكار مارتن هيدجر عن الوجود والقراءة وتعدد المعنى والتناص أو البينصية. وأفكار سارتر عن الحرية ولا نهاية المعنى ورفض العالم والثورة والتمرد والهدم والتدمير. كلها أفكار عبدت الطريق لمنظري التفكيك في تأسيسهم لهذه الاستراتيجية. يضاف إلى ذلك احتفاء دريدا بمصطلحات التحليل النفسي. كل ذلك حول أطروحة التفكيك من صور نقدية إلي صور فلسفية محضة، ولم يتأثر دعاة التفكيك بهذه الإرهاصات فحسب، وإنما تأثروا بعطاءات المد اللساني، وهو ما ستكشف عنه محطتنا التالية من هذا البحث.

2- التنقيب عن الأصول اللسانية للتفكيك:

إن أفكار جاك دريدا ورولان بارت وغيرهما من التفكيكيين لم تخرج عن الإطار العام الذي رسمه فرديناند دي سوسير، وتلامذته في شرحهم لمقولاته وآرائه اللغوية، فدعاة التفكيك لم يقدموا تصورا خاصا بهم للعلامة اللغوية كما فعل سوسير، لكنهم استخدموا المبادئ والأفكار نفسها عن العلاقة بين الدال والمدلول كطرفين للعلامة. كما تبنوا الآراء السوسيرية حول استقلال النص كبنية لغوية وعزلها عن مختلف الوسائط الخارجية، وأن المعنى يتحقق من خلال حرية العلامة داخل ذلك النسق(26).

والواقع أن"رولان بارت" لا ينكر تأثره بأطروحات اللسانيين، وهذا ما صرح به في حوار أجراه معه فؤاد أبو منصور:"دراستي النقدية والأدبية استلهمت تطور علوم اللغة التي

---

(25) jaque derrida: de la grammatologie, les editions de minint, Paris GE,1967,P89.

(26) ينظر: كريستوفر نورس: التفكيكية بين النظرية والتطبيق، ص8.

ازدهرت بفرنسا في مطلع الخمسينات وكنت في طليعة الذين تمثلوا قيمة كتابات "سوسير" وقواعد "جاكبسون" الشكلية، وموضوعات "إيميل بنفست" "[27].

من خلال هذا التصريح نستنتج ذلك التأثر الواضح في القول بالعلاقة بين الدال والمدلول، فقد اعتبرها سوسير اعتباطية؛ أي أنه ألغى العلاقة التطابقية بين الأسماء ومسمياتها، وهذا في نظر التفكيكيين رفض للنمذجة والمركزية من طرف سوسير فأصبح القارئ "يستقبل الكلمة على أنها كم مطلق مصحوب بكل الموحيات المطلقة، والكلمة هنا صارت موسوعية، إنها تتضمن تلقائيا كل التوقعات التي يسمح بها كعلاقات خطابية يتطلبها الاختيار النصي"[28]. فقد أعاد التفكيكيون النظر في العلاقة القائمة بين الدال والمدلول، حيث اعتبروها علاقة اعتباطية، مقتفين في ذلك خطوات العالم اللغوي سوسير، حيث تركوا فراغا كبيرا بين الدال والمدلول، وذلك بهدف شحن الدوال بفكرة اللعب الحر الذي يؤدي إلى تحقيق مبدأ لا نهائية الدلالة أو تعدد المعنى بتعدد طرقهم في اللعب والمراوغة.

يقول دوسوسير عن العلامة اللغوية "ويمكن القول.. إن العلامات التي تتميز بالإعتباطية المطلقة تحقق أكثر من غيرها العملية السيمولوجية"[29]، والسيميولوجيا علم يهتم بحياة العلامات ودلالاتها المطلقة التي أرادها التفكيكيون للعلامة باعتبارها أداة للكشف عن المجهول وارتياد المطلق، إنها "العلامة التي تقاوم الانغلاق وتقبل أي تفسير"[30]. وثمة مقولة أخرى لسوسير استفاد منها التفكيكيون لتحقيق المعنى، وهي الثنائيات الضدية وقد قابلوها بمصطلح الاختلاف، التأجيل "يقوم بوظيفة قد تختلف قليلا عن وظيفة "الثنائيات الضدية" عند سوسير، وهي تحقيق الدلالة باللعب الحر ولا نهائية الدلالة"[31]، فقد كان المعنى عند البنيويين وغيرهم يتحقق من خلال الثنائيات الضدية وذلك بمقابلة الكلمة

---

[27] ينظر: نور الدين السعد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، دار هومة للطباعة والنشر، ط3، 1993، ص29.

[28] عبد الله محمد الغذامي: الخطيئة والتكفير، ص69.

[29] ينظر: سيزا قاسم (نصر حامد أبو زيد): مدخل إلى السيميوطيقا (مقالات مترجمة ودراسات)، دار إلياس العصرية، القاهرة، ط1، 1991، ص176.

[30] عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، ص335.

[31] المرجع نفسه، ص377.

بضدها، والأشياء بأضدادها تفهم (الخير≠ الشر، النور≠ الظلام، الحياة≠ الموت...) أما التفكيكيون فقد قاموا بتغييب المعنى باستمرار عن طريق الاختلافات وتأجيل الدلالة.

لم تعد فكرة الثنائيات الضدية تحقق المعنى، بل أصبح الدور الأكبر للاختلاف وقد عبر رولان بارت بقوله :"والنص يمثل لانهائية اللغة، تبادلها وتعددها في الوقت نفسه، إنه يوجد في عالم مصنوع من اللغة فهناك لغة كرنفالية تحيط بالنص"(32). لقد وقف التفكيكيون عند أبعد نقطة على محور الاختيارات اللغوية عن طريق اللعب الحر واللاتمركز وتجاوزوا التشخيص إلى المطلق ليصلوا بالكلمة إلى أسمى درجات التألق والإبداع المغري لتنويع الدلالة والخروج عن دائرة التقرير إلى الإيحاء.

وفي ضوء الاختلاف تزداد الرسالة تعقيدا ويزداد الكلام بلاغة ومجازا...وتبقى مقولة الاختلاف قاسما مشتركا بين سوسير ودريدا علما أن :"اللغة تعتمد على الاختلاف، وكما بيّن سوسير فإن الاختلاف ينتظم في بناء المواجهة المتميزة حيث يتشكل تنظيمها الأساسي، وحيث فتح دريدا أرضا جديدة، وحيث أخذ علم النحويات دوره إلى المدى الذي أصبح يضلل، فإن ذلك أصبح يتضمن فكرة أن المعنى يختلف دائما، ربما إلى النقطة التكميلية غير المتناهية من خلال لعبة التعبير..."(33).

وإذا كانت اللسانيات السوسيرية قد أرست مبدأ الاستقلالية، أعني استقلالية اللغة عن سائر الأنظمة المعرفية الأخرى، واللسانيات بهذا الدأب جاءت لتخلص اللغة من وَحْل وأوضار العلوم الأخرى، بعدما كانت اللغة مندمجة في العلوم الأخرى. بالمنطق نفسه جاءت التفكيكية لتعيد الاعتبار إلى شباب اللغة وذلك من خلال النظر في الخطابات الأدبية والفلسفية بعيدا عن العلوم الأخرى، يضاف إلى ذلك أن التفكيكية قد استعارت من اللسانيات منهجها الوصفي، ويتجلى ذلك في وصف النظام اللامتجانس والمختلف للغة النصوص الأدبية والفلسفية، فكانت النظرة التفكيكية نظرة عمودية، وهو الأفق الذي انفتحت عليه المعرفة اللسانية. وإذا كانت الثنائيات من المبادئ الرئيسية في فكر سوسير فقد أضحى ذلك غراما جديدا تجلى في أطروحات دريدا. وعلى غرار هذه الثنائيات اللسانية نسج دريدا ثنائيات من قبيل: الحضور/الغياب، اللغة/الكلام، الكتابة/الاختلاف... إلخ.

(32) عمر أوكان: لذة النص ومغامرة الكتابة عند رولان بارت، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1997، ص30، 31.

(33) كريستوفر نورس: التفكيكية، النظرية والتطبيق، ص39.

وإن كان سوسير قد ركز على المقابلة بين الدال والمدلول، وهو ما انتقده دريدا موحيا بأهمية المدلول، وأسبقية الدال، ومن هنا فإن وظيفة الدال بالمفهوم السوسيري تصبح مقتصرة على إحالته للمدلول مما يعكس تصور سوسير الرامي إلى أن المفاهيم حاضرة، أي موجودة خارج الألفاظ، وأن العلامات لها قدرتها وقيمتها الذاتية الكامنة في قدرتها على العمل خارج حدود اللغة، وهذا يتناقض مع مقولة سوسير الشهيرة عن اعتباطية العلامة..."[34]، كما يرى محمد عناني.

لعل الفقرات السالفة أسهمت ولو بقسط قليل في إبراز المنشأ اللساني لاستراتيجية النقد التفكيكي، هذا النقد الذي رأى أن الفلسفة انغلقت على نفسها حول ما يسمى بالتمركز العقلي، وهو أمر أدى إلى كبت إمكانات الإبداع والتخييل، وخلق مجالا محدودا، ينحصر فيه المعنى. وقد استمدت استراتيجية التفكيك عطاءها النظري – في قراءة النصوص الأدبية والخطابات اللغوية– من أطروحات الفلاسفة وكذلك من اطروحات اللسانيين فيما يتعلق بالثورة على فلسفة الحضور والتمركز حول سلطة العقل والمنطق، وكذلك الأخذ بفكرة التناص في بناء وإنتاج الكتابات الجديدة، وانفتاح المعنى وتعدد الدلالة عن طريق الاختلاف والغياب المؤجل، يضاف إلى ذلك اتكاء استراتيجية التفكيك على مبدأ الاستقلالية والنظرة الوصفية والثنائيات وما إلى ذلك من المبادئ الأخرى التي أضفت على المشروع التفكيكي صبغة لسانية.

---

[34] محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، لونجمان، القاهرة، ط1، 1996، ص138 – 139. ثم ينظر عبد الناصر حسن محمد: نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، ص53.